# الشيخ عبد الحليم بن سماية في كتابات عبد الرحمن الجيلالي

د. قنانش محمد
جامعة عين تموشنت

**مقدمة**

ممّا لا شكّ فيه أن الجزائر في وقت ما ، لم تكن خالية من أهلها و علمائها و أدبائها ، و هذا ما ينافي دعاة المدرسة الاستعمارية الذين تصوّروا و اعتقدوا ، أن عصر الظلام قد حلّ بأرض المغرب العربي و شمال إفريقيا .

فالجزائر نموذج من تلك الأقطار العربية التي تفتخر بعلمائها و مفكريها ، من هؤلاء الرجال الذين تصدّوا للهجمة الاستعمارية ، جزائريون نبغوا في العلم و الفقه و المعرفة ، امتدّ باعهم إلى مشارف الشرق الأدنى و أقاصي بلاد النيل . أبهرت مواهب هؤلاء المثقفين ساسة فرنسا مند نهاية القرن التاسع عشر إلى النصف الأول من القرن الماضي عندما عبّروا بصدق و جرأة عمّا تعانيه مجتمعاتهم من ويل الاستبداد و هول الاستعباد .

تأتي في مقدّمة قافلة هؤلاء الرجال الذين أناروا بأعمالهم و مواقفهم سماء الجزائر المستعمرة بنور الوعي وعظيم السّعي ، مشهرين سيوف العلم في وجه حماة الجور و البغي . فمن الواجب في هذا المقام أن نذكر نماذج من أهل الثقافة و العلم ، فمنهم الشيخ عبد القادر المجاوي ، سعيد بن زكري ، حمدان بن الونيسي ، و عبد الحليم بن سماية ، و مولود بن الموهوب و غيرهم .

إن الحديث عن المثقفين التقليديين أو العلماء مطلع القرن الماضي ، هو حديث جدير بالأهمية و العرفان لنتعرّف على مكانة و مساهمة أولئك المشايخ في حركية المسيرة الثقافية و النهضة الفكرية للجزائر المعاصرة إبان الحقبة الاستعمارية . في هذا الصدد ، نقف وقفة وعي و تبصّر على حياة و منزلة و اسهامات الشيخ عبد الحليم بن سماية في كتابات الشيخ عبد الر حمن الجيلالي . لقد استطاع الأستاذ و الفقيه رحمه الله الشيخ عبد الرحمن الجيلالي أن يعود بنا إلى الذاكرة التاريخية ، لنحي حياة النور و العلم مع أعلام الجزائر بعد نهاية الحر العظمى .

في هذا الاتجاه ، عثرت على موضوع وارد في مقا ل بعنوان جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية الصادر في مجلّة " الأصالة " ، العدد 13 ، شهر أفريل 1973 . وقد كان ذلك المقال عاملا محفزا لنا لنطّلع على رأي و موقف الشيخ عبد الرحمن الجيلالي من حياة و خصال و أعمال الفقيه و الأديب عبد الحليم بن سماية . فقد خصّص الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي لهذا العالم الجزائري أربعة عشرة صفحة في مجلة الأصالة ، أبرز من خلالها جوانب هامة من حياة و نشأة و مبادئ و أعمال هذه الشخصية الفكرية الجزائرية .

**أوّلا / مولده و نشأته**

إن الواجب الأخلاقي و الدافع المعرفي ، يجعل من المرء أن يتجه حتما إلى البحث و الكشف عن كنوز ثقافتنا و عبقرية أعلامنا ، لنتعرّف بصدق على وزن و دور كل من أسهم في إنعاش نهضتنا الثقافية و ازدهارها. في هذا الشأن ،

يرى الشيخ عبد الرحمن الجيلالي أهمية هذا السلوك العلمي المصرّ على التنقيب عن أعلام الذاكرة الجماعية للجزائر الكولونيالية . فالالتفاتة إلى دراسة تراجم علمائنا ضرورة يمليها الضمير العلمي على كل باحث و لذا يقول في هذا المجال الأستاذ و الفقيه عبد الرحمن الجيلالي : " من أوجب الواجب علينا و قد أخذنا العهد على أنفسنا، من ذكر نبذ من تراجم العبقريين و أرباب القرائح لمشاهير الجزائريين عبر العصور . فكان لزاما علينا أن لا نغفل عن ذكر بطل من أبطال الجهاد الجزائري في سبيل الدين و العلم و الوطن . " [1]

ولد الشيخ عبد الحليم بن سماية سنة 1866 الموافق للسنة الهجرية 1283 بمدينة الجزائر، تنتسب عائلته إلى أسرة آل سماية ، العريقة بمدينة الجزائر، و يرجح أصلها إلى أتراك مدينة أزمير جنوب غرب تركيا على ضفاف سواحل الحوض المتوسطي . و قد أثار اسم " بن سماية " إشكالية بإقليم مدينة الجزائر حسب كتابات الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ، إذ يوضح هذا الأمر في إحدى مقالاته : " و هنا عندنا بالعاصمة أسرتان مشتركتان في التلقّب بهذا اللقب و هذه النسبة ، إذ كلّ منهما يدعى " ابن سماية " و كلتاهما من أصل تركي ، و هما في نفس الأمر متباعدان عن بعضهما في النّسب ، فأسرة الشيخ عبد الحليم ترجع في نسبها إلى حسن خوجة قاطع السكة بدار الإمارة الجزائرية على عهد الأتراك و هي أكثر شهرة بهذا اللقب من الأسرة الثانية التي ينتمي إليها الشيخ يوسف بن سماية ، و أن اللقب الحقيقي لها هو بكير خوجة . [2] و مهما يكن من أمر ، فإن عائلة بن سماية متجذّرة في مدينة الجزائر، فوالد عبد الحليم

هو علي بن عبد الرحمن بن حسن خوجة ، عرف بثقافته العربية الإسلامية ، أخذ العلم من شيخه العلامة مصطفى الحرار الجزائري ، مارس وظيفة التدريس بمساجد مدينة الجزائر ، حيث درّس في جامع السفير و الجامع الجديد بالعاصمة . والدته كريمة المحتد من آل الشيخ مصطفى الكبابطي آخر مفاتي المالكية على عهد الأتراك . و الشيخ الكبابطى معروف بموقفه النضالي المناهض للمستعمر الفرنسي خلال السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي . تعرّض للإبعاد من فبل السلطة الاستعمارية سنة 1843 لأنه وقف موقفا صارما ، رافض رفضا شديدا استحواذ فرنسا على ممتلكات القف الجزائرية ، بحيث توفي غريبا عن الوطن بمدين الإسكندرية . [3]

على هذا الأساس ، يحق القول أن نشأة الشيخ عبد الحليم بن سماية نشأة دينية محافظة ، ترعرع في بيئة العلم و التقوى و النضال فتشبّع بالقيم الصحيحة من أسرته و أفراد عائلته ، ممّا سيمكّنه من نهل أصول المعرفة و الصلاح في تكوين شخصيته و إنضاج مواهبه و الثبات على مواقفه . وهب والده عناية كبيرة لابنه عبد الحليم ، فربّاه تربية

أساسها الدّين و الخلق الحسن ، و لقّنه أصول القراءة و فنون الكتابة . بعد ذلك أخذه أبوه إلى كتاب بحي القصبة المعروف بجامع الرّقيسة حيث نهل علوم الشرع من أستاذه الشيخ المبارك الميمون حسن بوشاشية . على يد أستاذه

حفظ عبد الحليم بن سماية القرآن الكريم ، و كان الابن يرافق أبيه لحضور مجلس درس والده بالجامع ، فأخذ عنه الغلام العربية و الفقه و التوحيد .[4] و هكذا سار عبد الحليم على هذا المنهج في تكوين شخصيته و بناء فكره ليكون في المستقبل علما من أعلام الجزائر مطلع القرن العشرين ، و قد زاده اهتمامه الكبير بالعلوم الأخرى كالفلسفة و التوحيد و الحكمة سعة في المعرفة و حدّة في الذكاء و بصيرة في التفكير و سدادا في الرأي و القول .

**ثانيا / شخصيته و ثقافته**

اكتسب عبد الحليم بن سماية شخصية قوية تواقة إلى التعلّم و المثابرة و التضحية ، إذ دفعه حسّه الفكري و إدراكه العقلي إلى التعلّق بحبّ المعرفة و البحث عن أهلها مهما رحبت المساحات و تباعدت المسافات . فنهل العلوم من مشايخ عصره و نخصّ بالذكر الشيخ علي بن الحاج موسى و الشيخ محمد القزادري و الشيخ علي بن الحفاف ، و الشيخ ابن طاهر الوتري المدني ، و الشيخ قدور باصوم و الشيخ طاهر قيطوس .[5] كل هؤلاء العلماء الأجلاء ، استطاع عبد الحليم أن يتقرّب منهم و يأخذ عنهم و يستفيد من معارفهم و خصالهم ، فكانوا له الأوتاد الصلبة في إرساء قواعد شخصيته . فهؤلاء العلماء من الجزائر العميقة لا نعرف عنهم الكثير ، و ما وصل عنهم إلا القليل ، و لذلك ينبغي علينا أن نبحث عن كنوزهم و نطّلع على أعمالهم ، و ننقّب عمّا جادت به قرائحهم لأنّما أنتجوه فهو من مكوّنات تراثنا الوطني العريق .

و من فضائل شخصيته ، أنه كان مولوعا بالتعلّم و شغوفا بالبحث عن المعرفة ، فإقباله على حضور الدروس و إثبات وجوده في حلقات مشايخه ، لأكبر دليل و أبلغ برهان على العزيمة القوية و الإرادة الفولاذية التي تحلّى بها و سار على نهجها الشاب المتعطّش إلى التنشئة العلمية الرصينة . و في هذا المقام بالذات ، يصف لنا الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في إحدى محطّات كتاباته السلوك الشبابي المعرفي عند الطالب عبد الحليم ، فيقول : " لقد حضر دروس الشيخ محمد سعيد بن زكري و غيرهم ، فأخذ عن هؤلاء فنونا من العلم في اللغة و آدابها و علوم الشريعة و فنونها ، كما أنه تلقّى الحساب و الفرائض عن صهره الشيخ علي بن حمودة ، و علم الربع المجيب في الفلك و التوقيت و مواقف العضد كلاهما عن شيخنا أبي القاسم الحفناوي صاحب كتاب " تعريف الخلف برجال السلف " . [6] فذهب به شوقه إلى اكتشاف علم الحكمة ، أي السفر إلى أعماق الفلسفة و حكمائها ، فاشتدّت رغبته في دراسة الفلسفة اليونانية ، فأعجب بعبقرية أرسطو و دفعه حماسه العلمي إلى الاتصال بعالم جليل هو صديق حميم لوالده إبّان سنين الدراسة و الطلب ، ذلك هو " الشيخ محمد بن عيسى الجزائري " [*] و الذي كان يومئذ بتونس مهاجرا . و عن رحلة بن سماية العلمية إلى تونس في سبيل الاستفادة من روافد العلم و ملاقاة هذا

العالم الجليل ، كتب القفيه الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي قائلا : " فشدّ إليه رحله و نزل عليه ضيفا محبّبا مكرّما و تلميذا مدلّلا ، فأكرمه الأستاذ بن عيسى و أنزله من نفسه منزل الابن ، فلازم عبد الحليم منزله مكبّا على الدّرس و التحصيل و لم يغادر المكان متفسّحا أو متجوّلا في رحاب المدينة حتى يتعرّف إلى معالمها الشامخة و آثارها الرفيعة و أسواقها الغنية ، و لمّا عاد إلى وطنه و حلّ بمدينة الجزائر سأله أصدقاؤه و رفاقه أن يصف لهم تونس فقال لهم : " سلوا عنها من رآها " . [7]

اكتملت شخصيته في سنّ الحادي و العشرين عندما تزوج من امرأة شريفة من أهل مدينة الجزائر " عائشة " بنت السيد محمد بن مصطفى غياطو ، قاضي المالكية بالعاصمة ، فأنجبت له ولدين " سعد الدين " و " مصطفى "و ثلاث بنات . احترف مهنة التجارة في البداية ، ثم انتقل إلى التدريس في السن الثلاثين من عمره بالمدرسة الرسمية بالعاصمة و ذلك في يوم 4 ديسمبر 1896 . كانت نهاية القرن التاسع عشر مرحلة حاسمة في حياة عبد الحليم الثقافية ، بحيث انكبّ خلال هذه الفترة من عمره و بعزيمة قوية على مطالعة المؤلفات الراقية و الشاهدة على عصره كي يشبع نهمه العلمي و يثري رصيده المعرفي و يسمو بمقامه العقائدي ، و في هذا الشأن ، ظهرت شمائل الرجل أنه فقيه الأمة ، و بصيرة المجتمع و المصلح الرائد . و بالمناسبة يصف لنا الشيخ عبد الرحمن الجيلالي فيما أبرزه في كتاباته عن المؤلفات النفيسة التي نهل منها بن سماية أصول العلم و المعرفة ، ذاكرا لنا أمهات الكتب التي قرأها باهتمام قائلا : " و

عمره لا يتجاوز ثلاثين سنة ، فكان فيها أول من قرأ كتاب دلائل الإعجاز و أسرار البلاغة للجرجاني و الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي و تلخيص المفتاح لجلال الدين القزويني ، و البصائر النصيرية في المنطق لابن سهلان ، و المفصل في النحو للزمخشري . فكان بذلك أول من أدخل نظام إصلاح التعليم العالي بالجزائر ، كما أنه كان أول من اهتم بتدريس رسالة التوحيد للإمام محمد عبده و ختمها في ظرف سبعة أشهر .[8] تقديره للعلماء لا ساحل له ، فإعجابه بأهل العلم اجتاز به حدود الوجدان و اخترق بواسطته أسوار الخيال و مسالك الجبال . يسجل له التاريخ عن زيارة مجمد عبده صاحب كتاب " رسالة التوحيد " للجزائر خلال صائفة 1902 سارع الشيخ عبد الحليم بن سماية إلى استقباله و اقتتاله ليلا و نهارا . فلم يفارقه برهة من الزمن طيلة إقامته بمدينة الجزائر ، إلى أن غادرها باتجاه تونس فمدحه بقصيدة بعثها إليه بالقاهرة نشر جزءا منها في مجلة المنار يوم 3 فيفري 1903 .[9]

**ثالثا / أعماله و مواقفه**

من أعماله الأدبية قصيدة مدح الإمام محمد عبده ، نظمها عبد الحليم بن سماية سنة 1903 خلال زيارة الإمام أرض الجزائر ، ضمّنها خمسين بيتا ، و تمّ نشرها في مجلة المنار في عددها الصادر في اليوم الثالث من شهر فيفري سنة 1903 ، نال بها إعجاب المجتمع المصري الذي أحسن تقديره و تقدير علماء الجزائر في ذلك الوقت .

علّق على القصيدة صاحب المجلة الشيخ العلامة الأستاذ محمد رشيد رضا قائلا : " قصيدة عالم جزائري بل أشهر علماء الجزائر ، مدح بها الأستاذ الإمام و أرسلها إليه في القاهرة من عهد قريب ، فسّرنا منه أنها آية من آيات صلة علماء الإسلام بعضهم بعض في الأقطار المتباعدة و شعور أهل المغرب منهم بما يشعر به أهل المشرق من قدر الأستاذ الإمام . أننا نقتطف منها هذه الأبيات و هي تفوق في عددها الخمسين ، قال يخاطب الأستاذ الإمام : [10]

فأنت لنا شمس تنير على المدى * أتى نورها من غير أن نتطلّعا

أدير بذكراك الذي منك قد مضى * فاشرب كأسا بالصفاء مشعشعا

يذكر فيك المجد و العلم و التقى * فانظر من علياك عرشا مرفعا

و تلوي إلى تلك المجالس فكرتي * فتترك قلبي بالخيال ممتعا

محافل كان العلم فيها مجالسي * أسامر بدرا بالجلال تقنّعا

فاسمع فصلا من حكيم و حكمة * إذا ما بدت خرّت ذرى الزور ركّعا

فما بال أقوام هدى الله عقلهم يمارون فيه و السحاب تقشّعا

ولكن أكبر أعماله تغدو مجهولة ، تجهل أسبابها على حدّ قول الأستاذ الفقيه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ، و بخاصة البحث الهام حول حضارة الإسلام و فلسفته ، قدّم هذا العمل في المؤتمر الرابع للمستشرقين بالجزائر سنة 1905 ليضل هذا العمل مجهولا إلى اليوم . و لذا يقول الأستاذ عبد الرحمن الجيلالي بشأن هذه النقطة : " و لا يزال هذا البحث مجهولا لدينا إلى اليوم فلا نعلم عنه شيئا . [11]

حسب مواقفه و أفكاره ، يصنّف الشيخ عبد الحليم بن سماية في مجموعة كتلة المحافظين ، و التي تضمّ المثقفين و التقليديين أو العلماء و منهم عبد الحليم ، و كذلك المحاربين القدماء و من زعماء الدين و بعض الإقطاعيين و المرابطين . هذا وقد كان الشيخ عبد الحليم بن سماية من أشدّ المعارضين للتجنيد الإجباري للجزائريين ، على أساس أن هذا الإجراء الفرنسي لا يخدم مصلحة الجزائريين على الإطلاق . تجلّت مواقف بن سماية في برنامج كتلة المحافظين التي ركّز أصحابها على قضايا المجتمع مطلع القرن الماضي . تعرّض برنامجهم إلى مطالب في غاية الأهمية فأشاروا إلى موضوع المساواة في التمثيل النيابي و دفع الضرائب ، معارضتهم الشديدة لمسألة التجنيس و التجنيد الإجباري ، و أصرّوا على ضرورة إلغاء قانون الأهالي و كل الإجراءات التعسّفية ، استرجاع و العمل بنظام القضاء الإسلامي ، إصلاح التعليم و استعمال العربية ، احترام التقاليد و حرية الهجرة و الابتعاد عن العنف . [12] و يبدو أن الشيخ بن سماية قد ورث أسلوب النضال من شيخه الكبابطى عندما عارض هذا الأخير في سنة 1843 استحواذ فرنسا الاستعمارية على ممتلكات الوقف الجزائري فكلّفه ذلك الموقف النفي و مات بعيدا عن الوطن .

ركّز الاستعمار الفرنسي خلال العقود الأولى من الاحتلال و إلى غاية نهاية الحرب العظمى ، على مخطط سحق الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية ، بتبنّيه سياسة إفراغ المجتمع الجزائري من مقوّماته الحضارية و مقدّراته المادية فلجأ إلى سنّ قوانين في هذا الاتجاه . و ما أثار حيرة النخب الجزائرية ، تخوّف

المثقفين الجزائريين ممّا تمارسه الإدارة الاستعمارية بخصوص قضية التجنيس التي تعتبر في نظرهم خطرا كبيرا على الأمة الجزائرية المسلمة . فكانت مسيرة سماية النضالية محفوفة بالحركة و النشا ، عندما عارض التجنيس لأنه كان يعي خطورة تداعياته على المجتمع الجزائري . و قد نقرا موقفه حول هذه القضية في مواقف سابقيه من النخب الجزائرية التي قاومت بحزم موجة التجنيس . ففي سنة 1887 ، تذكر الكتابات التاريخية الموقف الموحد و المناهض للتجنيس من قبل النخب الجزائرية التي عبّرت عنه بكل وضوح في الرسالة الجماعية الموجهة إلى البرلمان الفرنسي ، جاء في الرسالة ما يلي : " إن أخذ الجنسية الفرنسية سوف يكون من نتائجه بالنسبة إلينا الإلغاء التام لقوانيننا و نظامنا ، فإن تجنيسنا الإجباري العام و بدون قيد و لا شرط ، سوف يفضي إلى التخلّي عن عوائدنا ، و سوف يفسد أخلاقنا . " [13] من هذه المنطلقات ، يمثل عبد الحليم بن سماية إحياء المسيرة الفكرية و النضالية التي خاضت من قبله مخاضها العناصر الواعية من المثقفين الجزائريين حول قضايا المجتمع من ضمنها قضية التجنيس . حارب بن سماية التجنيس لأنه رآه يتناقض مع مكوّنات الشخصية الجزائرية أناداك ، لا سيما فيما يتعلّق التخلّي عن الأحوال الشخصية الإسلامية من زواج و طلاق و ميراث ، و هي بنود وثقها قانون " سيناتوس كونسيلت " مند سنة 1865 و ظلّت تلك القيود سارية المفعول إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى . و قد تعرّض هذا التشريع الخاص بالتجنيس المشروط إلى حملة قوية استهدف أصحابها توعية الجزائريين كي لا

ينساقوا في هذا الإغراء المقيت ، و تجسّد هذا الموقف في عناصر النخبة قبل و بعد الفقيه المصلح عبد الحليم بن سماية . رفض الجزائريون سياسة التجنيس و رضوا بحالة الرعية التي تحفظ لهم دينهم و هويتهم رغم حرمانهم من الحقوق . (14)

كما وقف عبد الحليم موقف الرجل المجدّد للمنهاج التعليمي و التربوي في الجزائر الكولونيالية حسب ما يرويه عنه في كتاباته الفقيه و الأستاذ عبدالرحمن الجيلالي . و في هذا الباب بالذات أي التعليم ، يقول الشيخ عبد الرجمن الجيلالي : " عرف عنه أنه كان يدحض خصومه بالمناقشة و الحوار العلمي بناصع البرهان و صحيح الاستدلال . و لا عجب في ذلك من رجل ثاقب الذهن ، مثله رزق البراعة في البيان و الاهتداء . " (15)

و على هذا الأساس ، يظهر للعيان أن المنهج التعليمي لدى بن سماية ، يقوم على قواعد علمية دقيقة تخضع إليه الوظيفة التعلّمية الحديثة ، حدّدها عبد الحليم بن سماية حسب كتابات الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ، في سياق المناقشة و الحوار و البرهنة ، أي ما يعرف بمحدّدات المنهجين التحليلي و النقدي ، و اللذين يستندان في الأصل على طريقة التدرّج و الاستدلال . و لما أسند ت إليه مهمة التعليم ، حاول بن سماية ترجمة كفاءاته العلمية و قدراته المنهجية في الواقع العملي ، فانكبّ على ممارسة التعليم في مساجد مدينة الجزائر و قد رافقته في هذا الشأن رؤيته الراغماتية في التنشئة و التدريس و التكوين لتلامذته . و تأتي شهادة الشيخ الجيلالي بقوله : " في 15 أكتوبر 1900 ،

أسندت إليه خطة التدريس بالجامع الجديد مكان والده المرحوم الشيخ علي بن سماية ، فشمّر الشيخ عن ساعد الجدّ و الاجتهاد و حرّس حياته لخدمة الملّة الإسلامية ، بحيث قسّم ساعات العمل اليومية بين المدرسة و المسجد ، فجعل منها للمسجد 12 ساعة في الأسبوع ، و للمدرسة 14 ساعة ، في تدريس علوم اللغة و الشريعة و المنطق ، و تخرّج على يده جمع من الأدباء و العلماء شغلوا مناصب التدريس و القضاء و الإفتاء و الإمامة في مختلف أنحاء القطر الجزائري .[16]

لقد استطاع عبد الحليم بن سماية من أن يضع منهاجه في التعليم و يؤسّس لمدرسة جزائرية تجمع بين العامل البشري و الجانب التربوي البيداغوجي ، محاولا في ذلك تنشئة جيل يتفاعل مع مقتضيات عصره و متمسّك بأصول هويته و حضارته . فشخصيته الحصينة و رؤيته الرصينة ، فتحت له الباب ليتفاعل مع رجال جيله و ليتبوّأ مكانته ضمن رعيل النخبة من المثقفين الجزائريين الأوائل .

تميز الشيخ عبد الحليم بن سماية في حقل التعليم بجزالة الأسلوب و فصاحة اللسان و سعة الفكر و قوّة الاستدلال .عنه الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في المجال : " كان درسه جزلا ، يتكلّم بفصاحة و عبارة منقحة بليغة و ألفاظ فخمة و ذلك يرجع إلى غزارة مادته اللغوية و انكبابه على مطالعة معجم لسان العرب ، فكان لا يتنازل في دروسه للغة العامية أبدا اللهم إلا في بعض النوادر التي لا تخلو من فائدة تكون متصلة بموضوع الدرس .[17]

**خاتمة**

إن الجزائر أمة غنية و فخورة بنخبها و رجالاتها على مرّ الزمن ، استطاع الجزائريون طوال الحقبة الاستعمارية أن يتحدّوا سياسة المستعمر الفرنسي بما حملته من مآس و ويلات . و شخصية عبد الحليم بن سماية رمزا من رموز النخبة الجزائرية التي أثبتت وجودها و فرضت مكانتها من خلال جهودها الفكرية و إرادتها النضالية .

من هذه المنطلقات و على ضوء ما جاء في كتابات الشيخ عبد الرحمن الجيلالي عن هذه الشخصية المتميزة لدى عبد الحليم بن سماية ، فمن الواجب أن نخلص إلى استنتاج الحقائق و الملامح و التوجهات نراها في غاية الأهمية عن النخبة الجزائرية إبان الفترة المبكّرة للحقبة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر.

يعدّ عبد الحليم بن سماية من النخب الفكرية المخضرمة ، لكونه عاش سنوات الاحتلال و الغزو خلال القرن التاسع عشر و قرابة النصف الأول من القرن الماضي ، ممّا أهّله أن يكتشف خطورة سياسة المستعمر الفرنسي الرامية إلى تدمير أركان الكيان الوطني و دحضه لمقوّمات المجتمع الجزائري . و لذلك اتجهت مساعي بن سماية إلى محاولة إنقاذ المجتمع من الانصهار و الزوال نتيجة عمليات التجنيس و التنصير و التجويع .

انصبت جهوده على مهمّة إصلاح المجتمع الجزائري ، أي تحصينه من أدواء و أهواء السياسة الكولونيالية و تداعياتها على مستقبل الشخصية

الجزائرية الإسلامية . و لهذا الغرض اجتهد في ممارسة وظيفة التعليم و المساهمة الميدانية في تنشئة جيل محافظ ، غيور على البلاد و العباد .

الميزة اللافتة للنظر في شخصية عبد الحليم بن سماية ، أنه يعدّ من الأوائل لدى جماعة دعاة التفتح ، كونه استطاع أن يجمع بين أهل الأصالة و تيار المعاصرة ، تجلّى ذلك في عرفانه باللغات الأجنبية كالفرنسية و إطّلاعه على اللغة العبرية ، الأمر الذي مكّنه فعلا من الانفتاح على ثقافة الغرب .

يعتبر عبد الحليم بن سماية حسب ما اكتشفناه في كتابات الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ، أنه من بين المؤسّسيين الأوائل للمدرسة الجزائرية الحديثة إبّان الفترة الاستعمارية ، فوضع لها برنامجها الخاص و ضبط لها توقيتها المناسب و حدّد لها أيضا بعدها و غايتها من العملية التعلّمية .

امتدّ تأثير هذا الرجل المثقف إلى مساحات أوسع من الحياة الثقافية و الاجتماعية السائدة في عصره ، فنجح في تخريج جيل من الأطر و الأعلام انتفعت بهم الدولة الجزائرية في مجال القضاء و الإفتاء و التدريس . و لذلك يعدّ بن سماية في تقديرنا رائدا من روّاد النهضة الجزائرية الحديثة .

الجدير بالملاحظة ، أن عبد الحليم بن سماية على غرار ما كتب عنه ، لا يحصّن هذا المثقف الفقيه من النسيان فالكتابات التي اهتمّ أصحابها بحياة و تراجم عبد الحليم لا ترقى إلى حجمه العلمي و سيطه الفقهي و عطاءه الفكري ، باستثناء بعض المساهمات الرصينة و المشجعة التي عنيت بتاريخ و حياة بن سماية نذكر منها مؤلفات شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله في

سلسلة أجزائه حول تاريخ الجزائر الثقافي ، و مقالات الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في جريدة الأصالة و مؤلّفه حول تاريخ الجزائر العام الجزء الرابع . و لذلك تبقى الكثير من جوانب هذا الرجل مجهولة عنّا ، فلحدّ الآن لم نعرف بعد المؤلّفات التي تركها لنا ، و لم تظهر دراسات أكاديمية مهتمة بهذا الرمز من رموز النخبة الوطنية الجزائرية . و مهما بلغ الأمر من إعجاب أو ذهول ، يعتبر بن سماية علما من أعلام الجزائر الحديثة ، و رائدا من روادها الذين أوقدوا مشعل نهضتها المعاصرة .

## الهوامش

(1) عبد الرحمن الجيلالي ، " جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية السياسي و الثقافي 1866 . 1933 "، مجلة الاصالة ، العدد 13 ، مارس . أفريل
1973 ، ص ص 199 ، 200 .

(2) عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ، ص 202 .

(3) عبد الرحمن الجيلالي ، نفس المرجع ، ص 202 .

(4) عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ، ص 202 .

(5) عبد الرحمن الجيلالي ، نفس المرجع ، ص ص 202 . 203 .

(6) عبد الرحمن الجيلالي ، نفس المرجع ، ص 203 .

(*) يعرف عنه أنه من بلغاء و علماء اللغة ، ولد بمدينة الجزائر سنة 1828 ، أخذ العلم من العلامة الشيخ حميدة العمالي ، و بعد ذلك هاجر إلى تونس و عرض عليه منصب رتبة حاكم مجلس الجنايات فأمتنع عن ذلك . تميز بنل الخلق و عفة النفس و نزاهة الروح ، و من مؤلّفاته : " الماس في احتباك يعجز الجنة و الناس

طبعه بتونس توفي الشيخ عن عمرلا ناهز 67 سنة . (ينظر إلى كتاب عبد الرحمن الجيلالي ، بعنوان تاريخ الجزائر العام ، الجزء الرابع ) .

(7) عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ، ص 203 .

(8) عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ، ص 204 .

(9) عبد الرحمن الجيلالي ، نفس المرجع ، ص 204 .

(10) عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ، ص ص 204 . 205 .

(11) عبد الرحمن الجيلالي ، نفس المرجع السابق ، ص 210 .

(12) أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، الجزء الثاني 1900 . 1930 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1983 ، ص 153 .

(13) مصطفى الأشرف ، الجزائر الأمة و المجتمع ، ترجمة حنفي بن عيسى ، المؤسّسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983 ، ص ص 238 . 239 .

(14) أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء السادس ، 1830 . 1954 ، دار البصائر ، الجزائر ، 2007 ، ص 192 .

(15) عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ، ص 205 .

(16) عبد الرحمن الجيلالي ، المرجع السابق ، ص ص 205 . 206 .

(17) عبد الرحمن الجيلالي ، نفس المرجع ، ص 206 .